كنز من كنوز الجاحظ

أربع رسائل من رسائله

— ٤ —

الرسالة الثالثة من رسائله الأربع (١)

عنوان هذه الرسالة (الجدّ والهزل) وقد مُنيت من الأغلاط والتحاريف بما لم تُمنَ به أخواتها . وبذلك فاتنا الخبر الكثير من مقاصد الجاحظ ، وجمال تفاكيره ، وحسن ابتكاراته ، التي حلّى بها جيد تلك الرسالة . ولم تُصَب الثقافة العربية الأدبية ومخطوطاتها بفتنةٍ أسوأ من فتنة سوء نسخ النساخ لها ، ولا سيما آثار الجاحظ ومخطوطات كتبه . ولو وصلت الينا تلك الآثار مصححةً سالمة من الغلط والتحريف لنالنا خيرٌ كثير من العلم ، ولكانت لنا ثروة لا تثمن من فصيح الألفاظ ، وبديع الأساليب ، وجميل المعاني .

جعل الجاحظ رسالته هذه في الجِدّ والهزل ، ولكنه لم يتكلم عليهما ، ولم يشرح معناهما من حيث اللغة وعلم الأخلاق ، ولا من حيث حسن الجِدّ وقبح الهزل أدباً وشرعاً ، ولم يسرد ما ورد من النصوص وأقوال الحكماء في ذلك ، كما هو دأب المؤلفين في الادب ومكارم الأخلاق . وإنما هو يخاطب فيها صديقه (الوزير محمد بن عبد الملك الزيات) ويفتَنُّ في معاتبته ولومه على بعض ما كان منه أيّ افتنان ، مفرغاً ذلك كله في أساليب الجِدّ تارة ، ومعارض الهزل والتهكم تارة أخرى . ومهّد للكلام بمقدمة أطال فيها بما لا يظهر أن له علاقة بالجد

---

(١) مر الكلام على الرسالة الأولى (المعاد والمعاش) فى المجلد (٢١) ص ٥٣٠ والمجلد ٢٣ ص ٤٨ كما مر الكلام على الرسالة الثانية (كتمان السر وحفظ اللسان) في المجلد ٢٢ ص ١٣٠ . وقلنا ثَمّ ان ناشر هذه الرسائل هو المستشرق (باول كراوس) في القاهرة سنة ١٩٤٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا بالهزل ، كما هي عادته في ما يكتبه أو يترسل به . وهو في توجيهه العتاب الى صديقه (الزيات) يظن القارئ لأول وهله أنه إنما يعاتبه في أمرٍ عظيم ، أو من أجل إخلاله بالصداقة وطعنه لها في الصميم . واذا هو يعتب عليه ، وينقم منه ، حقده وموجدته وتسرّعه في الانتقام ، وحب العقوبة ، — في أمرٍ تافه حقير — افتتح به الرسالة فقال : (جُعلتُ فداك : ليس من أجل اختياري النخلَ على الزرع أقصيتَني ، ولا على ميلي الى الصَدَقة دون إعطائي الخراج عاقبتَني ، ولا لبغضي دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتَني ، ولستُ أدري لمَ كرهت قربي ، وهَويت بُعدي واستثقلتَ روحي ونفسي) الخ . ثم عاد بعد نحو عشر صفحات فقال : (وبعدُ : متى صار اختيار النخل على الزرع يُحقِد الاخوان ؟ ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ الثمر يورث الهجران ؟ ومتى ومتى الخ ...) .

وهو في رسالته هذه يستطرد الى وصف الذنوب وأنواعها واسبابها ومصادرها ومواردها ، والعفو عنها ، والعقوبة عليها . ثم يأمر بالتغافل عنها والتماس الأعذار لصاحبها ، ما لم تكن تلك الذنوب خبيثة مستعصيةً ، كالذنب الذي لا سبب له الا البغضة . فهذا (لو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذَرك كثير من العقلاء ، ولصوّب رأيك عالَم من الأشراف) . وقوله (عالَم) الظاهر أنه بفتح اللام مريداً به الطائفة ، كما يُراد بكلمة (أمة) أحياناً (ولما وَرَدَ ماء مدين وجد عليه أُمةً من الناس يسقون) .

وقد يكون السبب في الذنب أنه طبيعة في المذنب ، وخُلُق غالب عليه : فالجاحظ ينصح فيه بقوله (اقتُله قتلَ العقارب ، وادمغه دمغ رؤوس الحيات) ومعنى دمغه شجّه حتى يبلغ دماغه ، ثم استُعمل الدمغ في معنى القهر كما استعمله الجاحظ . قال : واذا أساء اليك مسيء لالشيء (إلا لتُعطيه على الخوف ، وتمنع عرضك من جهة التقيّة ، فهذا امنعه جميل رفدك ، واحتلْ في منعه من قبل غيرك ، فانك ان أعطيتَه على هذه الشريطة فقد شاركته في سبّ نفسك ، واستدعيت الألسنة البذيئة الى عِرضك ، وكنت عوناً لهم عليك .. الخ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينصح الجاحظ بان لا يُعطى ذلك الذي يَسُبُّ الناس ويهددهم بهتك أعراضهم ، ونبش أسرارهم ، فان الخوفَ منهم ، واسكاتهم بالعطاء ، يزيدهم جرأة وتمادياً ، بل يجرّئ غيرهم على مثل صنيعهم . وهذا ما يسميه الافرنج (شانتاج) : أعطني والاّ فضحتك !!! وأشهر من اتّسم بهذه الخصلة الملعونة من شعراء العرب (الحُطيئة) ، وعرف ذلك من دأب بعض الشعراء في العصر العباسي ، عصر الجاحظ ، بل قلّما يخلو عصر من وجود أمثال هؤلاء الذين كان ارتأى (الاب انستاس) أن يطلق عليهم اسم المشنّحين (بالحاء) اي المشنّعين . فيكون التشنيح في رأيه هو الـ chantage عند الافرنج . ومن أصرح ما قيل في التشنيح قول ذلك الشاعر :

(قُل للرؤوس ومن تُرجى نوافلهم ومن يؤمّل فيه الخير والعَمَلُ)
(إن تسعفونا بأعمالٍ نصيّرها شغلاً والاّ ففي أعراضكم شُغُلُ)

أما المذنب اليك إذا كان حسوداً ، فقد قال الجاحظ (إن من العدل المحض ، والانصاف الصحيح ، أن تحطّ عنه نصفَ عقابه ، وأن تقصر من العقاب على بعض مقداره ، لأن أَلَم حسده لك قد كفاك مؤونةَ شطرِ غيظك عليه) .

لا جرم أنك اذا فكّرت في ما يكابد حسودك من الألم ، قلّ غيظك عليه الى النصف ، فليكن عقابك له الى النصف أيضاً . كذا حَكَم الجاحظ .

ويعود الجاحظ فيستنكر أشد الاستنكار معاملة صديقه (الزيات) له بالجفوة ، والعدوان عليه بالعقوبة ، ويهوّل في الوصف حسب عادته فيقول : (والله لو كنتُ فعلتُ كذا وكذا ... ونقضتُ الشروط بأسرها ، وأفسدتُ نتاجك ، وقتلتُ كل شطرنجيٍ لك .. وكنت جُذام المُردان . وبرسام الأولاد . ومسختُ جميع الجواري في صورة أبي رملة . ورددتُ شَطاط خَلقكَ الى جُعودة أبي حَثّة ، وكنتُ أول من سنّ بيع الرجال في النخاسين ، وحوّلتُ اليك عقل أبي دينار . وأحببت صالح بن حنين ، وأجوجتُك الى حاتم الريش ... لكان ما تركَبُني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به سَرَفاً ، ولكنت في هذا العقاب متعدّياً) أي إن ما ذكر من فظيع الذنوب هو الذي يستحق أن يعاقبه عليه ، لا أن يعاقبه على تفضيل النخل على الزرع مثلاً . والجاحظ في مصنفاته لا يأنف أن يتمثّل بأشخاص من عامّة زمانه ، لا قيمة لهم سوى شهرتهم بالخصال المذمومة ، فيجعلهم (أبطالا) لرواياته وأقاصيصه ، كما تمثّل هنا بأبي رملة وابي حَثَّة وغيرهما . وقد يقع تحريف في أسماء هؤلاء الأشخاص فيصعب الاهتداء الى معرفتهم في كتب التراجم ، هذا إن كان مؤلفوها يأبهون لهم ، أو يهتمون بذكرهم . وبعض هؤلاء المؤلفين المتزمّتين لا يرون للجاحظ نفسه قيمةً ، فضلاً عمن يحفل بهم من مثل من ذكرنا . ويفهم من السياق أن (أبا رملة) كان نهايةً في الدمامة والقبح ، كما كان (ابو حثة) غايةً في القماءة والقِصَر وتداخل الجسم . فلم يكن ذا (شَطاط في الخَلْق) وهو حُسن الطول ، وامتداد القوام . وقوله (ما تركبني به) يدل السياق على انه يريد ما تعاملني به من السوءا والأذى . وفي الأساس (ركبه بالمكروه وارتكبه) . أما (صالح بن حنين) فثقيلٌ بغيض ، لا يمكن ان يحب ، ومن أحبه كان أثقل منه . ولذا تبرّأ الجاحظ منه ، ومن حبه . ولقد ظفرنا بشيء من أخبار (حاتم الريش) الذي تعوّذ الجاحظ من الاتكال عليه ، أو ان يحوج صديقه الوزير ابن الزيات اليه ، فقد جاء ذكره في الأغاني (جزء (٦) ص ١٩٤ و ١٩٥ من طبعة الساسي) في أخبار (الحسين بن الضحاك) . قال ما ملخصه : (لما جاء المعتصم بغداد سأل عن (ندماء صالح بن الرشيد) فأُدخلوا عليه ، وفيهم الحسين ، وقَنِينة ، وحاتم الريش ، وراوي الخبر كثير بن اسماعيل ، قال كثيرٌ : ولشؤمي كتبتُ بين عينيَّ هذه الجملة (سيّدي هَب لي شيئًا) فلم يستملحه المعتصم ، فدعا باصحابي من غدٍ ، ولم يدعُني . فاستشفعتُ بيتين نظمهما لي الحسين بن الضحاك وهما :

(قل لدنيا أصبحت تلعبُ بي سلّط الله عليك الآخره)

(إن أكن أبردَ من قَنِينةٍ ومن الريش فأمي فاجره)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فضحك المعتصم ، وأمر لي بجائزة . ثم ذكر صاحب الاغاني قصةً ورد فيها ذكر (حاتم) هذا ، وأنه كان قبيحًا ، كثير الحُباق ، يحبق في المجالس ولا يستحي حتى لُقب بالحبّاق . فقول الجاحظ للوزير ابن الزيات (واحوجتك الى حاتم الريش) غاية في استحقاقه للعقوبة ، مذ اضطر الوزير أن يلجأ في بعض حالاته الى حاتم الريش ، وهو من القبح والثقالة وسوء الأدب بحيث وصفوه ولقبوه . و (ابودينار) ذكره الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) وعدّه في جملة الموسوسين والسخفاء ، كما عدّ (صالح بن حنين) في كتابه (البخلاء) في جملة البُغَضاء . وقد اشتهر بين الناس بذلك ، حتى لو نُسب اليه نادرةٌ حارّة لما استملحها الناس واستبردوها ، بينما تراهم إذا سمعوا النادرة الباردة عن (مُزَبّد) الفكاهي المشهور تقبّلوها واستملحوها .

ومن طريف ماذكره الجاحظ في هذه الرسالة عن سبب غيظ صديقه منه ، وعتبه عليه أنه — أي الجاحظ — مُهْمِلٌ لقماطره ، غير منظّمٍ ولا مرتب لدفاتره ، وقراطيس مكتبته ، وكراريس علمه ، وقد تركها من دون ربطٍ ولا خرزٍ ولا حزمٍ (على أن الدفتر اذا انقطعت حزامته ، وانحلّ شداده ، وتخرّمت ربطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنّة ، تفرق ورقه ، واشتد [1] جمعه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربما ضاع اكثره ، والدّفتان أجمع ، وضمّ الجلود لها أصون ، والحزْم لها أصلح) .. الى آخر ما قال ، مما فيه عِظة لمديري دور الكتب وزوارها ، وارشادٌ الى أشياء لا تخطر الا ببال عبقريٍّ عجيب ، كشيخنا الجاحظ (راجعها في ص ٧٢ و ٧٣ و ٧٤) . و (شِداد) الدفتر ما يُشدّ به ، ولم أره في المعاجم ، فهو من أوضاع الجاحظ التي اعتمد فيها على القياس : مذ وجد أهل اللسان يقولون : رِباطُ الإضبارة ، وحزامها ، وسحاؤها ، فلماذا لا يصح أن يقول هو شِدادها ؟

---

(١) اشتدّ من الشِدّة أي صعُب جمعه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد استطرد الجاحظ بهذه المناسبة (في ص ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧) الى كيف يجب أن تكون قراءة الكتب ، والأضواء التي يُستعان بها على المطالعة ، وكيف يحسن أن يطالعها المطالع ؟ أيطالعها مستلقياً أم جالساً ؟ وقد فضّل الاستلقاء على الجلوس واختار ذلك لنفسه ، مذ قال : (واذا نظرتُ فيها وأنا جالس سَدِرتْ عيني ، وتقوّس ظهري ، واجتمع الدم في وجهي ، وأكرهت بصري على غير جهته ، وأجريتُ شعاع ناظري في غير مجراه ... ومن كان على مقطع جبلٍ ، أو على شُرُفات قصرٍ ، فأراد رؤية السماء على بعدها ، وجَدَ ذلك على العين سهلاً خفيفاً ، وان أراد أن يرى الأرض على قربها ، وجد ذلك على العين عِبئا ثقيلاً) . وكذلك حال مطالع الكتب وهو جالس ، فانه يشعر بتعب عينيه إذا حنا رأسه اليها وهي في حَجْره . ولكن لا ندري إذا كان أطباء العيون اليوم يجوّزون ما جوّزه الجاحظ من تفضيل مطالعة الاستلقاء : فانهم على ما نعلم يأمرون بالمطالعة جلوساً ، مع المحافظة على انتصاب القامة ، ورفع الهامة .

ثم أوغل الجاحظ في إعمال المقارنة بين المطالعة جلوساً ، والمطالعة استلقاءً ، وانتهى أخيراً الى تقبيح الجلوس ، حتى تعرّض الى ضرر الاستعانة بعبده أو أَمَته ، في مناولة كتب المطالعة ، وعدّ ذلك من شؤم الجلوس وشقائه فلا مندوحة إذن عن استلقائه . ولم ينس الجاحظ ان يعيب العبد والأمة بجهلها قيمة الكتب ، وأنه اذا استعان بأحدهما فهو إنما يستعين (بأخرق الناس كفّاً ، وأقلّهم وَفْقاً ، واكثرهم التفاتاً ، واحضرهم نعاساً) الى آخر ما نعتهم به من ارتعاش اليد والضجر والفِرار من الكتب ، وان كل ذلك يحمله على ترك الاستعانة بعبده وأَمته ، وأن يتعاطى ذلك بنفسه ، على ما فيه من إرهاق وشقاء في المطالعة ، ولكن كيف يتركها ، ومن فوائدها كيت وكيت ؟ ثم ختم الكلام على بحث الكتب ومطالعتها بالرجوع الى صديقه الذي عاقبه على إضاعة كتبه ، وإهمالها ، والسرف في ترك العناية بها وإغفالها ، قائلاً : (فحسبُك الآن من شجٍ من يأسوك ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن قتل من يُقتل فيك) يعني أن الجاحظ يريد حياةَ صديقه (الوزير) وصديقه يريد قتله . وعندي أن صديقه إن كان غلا في عقابه ، فقد كان هو أشد غلواً في لومه وعتابه .

وللشطرنج نصيب كبير في أدب الجاحظ وكتاباته : فقد مرَّ قوله (حتى كأني قتلتُ كل شطرنجيّ لك) في صدد التعجب من صديقه المتجنّي عليه . وانه لا يستحق كل هذا العقاب ، ثم عاد الى الصدد نفسه ص ٧٦ ومثّل بالشطرنج فقال (حتى كأني علّمت عليك « شاه مات ») يريد ان يقول : تعاقبني حتى كأني غلبتُك في لعبة الشطرنج ، ناثلاً الجملة التقليدية في إعلان الغلب وهي قولهم : (شاه مات) . وكما ان (شاه مات) جملة متوارثة ، كذلك قول الجاحظ (علّمت عليك) أي غلبتُك لكن عهدي بقولهم (علّم عليه) أنه لا يُستعمل اليوم بين الشطرنجيّين وانما يستعمله اللاعبون بالسيف والترس وما يشبهه من ألعاب الفروسية . وقد تمثل الجاحظ بالشطرنج أيضاً في هذه الرسالة ص ٨٢ و ٨٩ .

ومن أغرب إيغال الجاحظ في الوصف ، ومعاتبة صديقه له في التفريط بكتبه ، وأمر مطالعتها ، زعمه أن صديقه إنما يكيد له فيحمله على مطالعتها ليلاً على ضوء النار ولهبها ، فيسخن جسمه ، فيصاب بمرض المثانة ، وهو شيخ هرم ، معرّض للأمراض ، فقد قال يخاطب صديقه (وقلت اذا سَخَن بدنُه سُجن بوله ، واذا سُجن بوله جرَح مثانته ، وأحرق كليته ، وطبخَ فضولَ غذائه ، وجفّف ما فضل عن استمرائه ، فأحاله حصا قاتلاً ، وصخراً جامداً ، وهو دقيق ... ضيّق ... فإذا حَصَاه يورثه الأَسْر ، وفي ذلك الأسر تلف النفس ، أو غاية التعذيب ، وقلتَ : فان ابتليتُ بطول عمره ، أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنا ، فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره . جُعلتُ فداك ! ما هذا الاستقصاء ؟ وما هذا البلاء ؟ وما هذا التغلغل ...) يلوم الجاحظ صديقه على استقصائه في الكيد له ، وإلحاق الأذى به ، ولكن أصحيح أن صديقه ابن الزيات انتهى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الاستقصاء الى هذا الحد الذي زعمه الجاحظ ؟ وأنه حاول عن طريق مطالعة الكتب ليلاً أن يوقعه في أمراض المثانة والحصى والأسر (احتباس البول) ؟؟ حقاً ان شيخنا الجاحظ اعتاد الغلوّ والتغلغل والإيغال ، وركوب اساليب من المعاني لا تخطر لسكان عَبْقَر على بال .

ومما اتهم به صديقه أن صديقه كان يعد أو يحاول أن لا يكون للجاحظ ولدٌ يحيي ذكره ، ويحوي ميراثه ، كما كان يحتال في ان لا يكون له مال (فيالها مكيدة ما أبعد غورها ، ويالها حُفرة ما أبعد قعرها ... وما إخالها إلا وتدقّ على (ابن العاص) وتغمض على (ابن هند) ، ويكلُّ عنها (أخو ثقيف) ويستسلم لها (ابن سَمَيَّة) . وليس هذا فقط بل زعم الجاحظ أن صديقه كان يفجؤه بالمكايد والمساآت ، ولا يتدرج بها حتى يكون الجاحظ قد أنس بها ، واستعدّ لها ، ثم يرقّق قلبه عليه قائلاً : (فقد متُّ الآن فمع من تعيش ؟ بل قد قتلتني فمَن الآن تعاشر ؟ أمع الشطرنجيين ؟ !!) ولو قال هذا غيرُ الجاحظ لقلنا إنه سرَقَه من قول أبي نواس :

(مَن ذا يكون أبا نُوا سك إن قتلتَ أبا نواسك ؟)

ومن أفانين العتاب التي وجهها الجاحظ الى صديقه أنه لا ينبغي تفضيل المركب على الصاحب ، (ويريد بالمركب الدابة التي تُركب) ، قال (ومن يعدل إمتاع بهيمة بامتاع أديب ؟ ... قالت ابنة النعمان : ولم نرَ في ما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغ في خيرٍ أو شر من صاحب) تريد أن الصاحب أفضل من سائر اصناف الناس من حيث مساندة صاحبه في خيره وشره ، وعسره ويسره . واراد الجاحظ ان يزيد قول ابنة النعمان — وهي الحُرقة المشهورة بعقلها — وضوحاً ، فحكى عن (عبيد الله بن زياد) أنه أصيب ببئس في معدته فأُشير عليه باستعمال الحقنة ، فتفحّشها ، وكبر عليه استعمالها ، ولما رأى انه لا بد منها تساءل عمن يزاول ذلك منه ؟ (فقال له حارثة بن بدر : ما أجد أولى بتولي ذلك من الطبيب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال عبيد الله : كلاّ ! فأينَ الصاحب ؟) . وانجرّ الكلام في أسباب موجدة صاحبه عليه الى ذكر الغضب . فقال : إن الغضبان اذا اشتغل أُوار غضبه لا يَثنيه عذل ، ولا ينهنه من غلوائه رُقية ، (فلو سَعطتَه بالتوراة ، ودَجرتَه بالانجيل ، ولَدَدْتَه بالزبور ، وافرغت على رأسه القرآن إفراغًا ، وأتيته بآدم شفيعًا — لما قَصَر دون أقصى قوته الخ) ...

ثم طغى المَرَح على قلم الجاحظ فترك الاعتدال في الجِدّ والهزل إلى ما يشبه الشَّطَط والاستهتار بحكم العقل ، فقال بمناسبة تعداد أسباب العداوات بين الخلطاء ، وانه لا سبب من هذه الأسباب كان ينبغي أن يفسد ما بينه وبين صديقه (ابن الزيات) ، نعم كان هناك سبب واحد ، من شأنه أن يورث التحاسد ، وهو تجاورهما في (مدينة السلام) ، وتقابل دورهما فيها ، ورجوعهما في النحلة الى مذهب واحد ، والى النظر في علم واحد ، ثم قال (ولكن اشتد تعجّبي منك اليوم وأنا بفرغانة !!! وانت بالأندلس !! وأنا صاحب كلام ، وانت صاحب نتاج (أي إبل وماشية ، أو انه يعني انك تنتج عَمَلاً وانا ازوّق كلامًا) وصناعتك جودة الخط ، وصناعتي جودة المحو (اي أريد ان أجيد الخطّ مثلك فيخرج كأنه ممحواً ، أو صواب المحو (الحوك) مريداً به حوك الكلام وصياغته) وانت كاتب ، وانا أميّ !! وانت خراجي ، وانا عشريّ ، وانت زرعيّ ، وانا نخليّ ، فلو كنتَ اذ كنتَ من بكرٍ كنتُ من تميم (يُضرب المثل بعداوة ما بينهما) كان لك الى العداوة سبب ، وإلى المنافسة سلّم) ثم ارتقى الجاحظ من هذا الأوج في الهزل الى أوج أعلى ، فقال (وانتَ طويل ، وانا قصير ، وانا اصلع ، وانت انزع (الصلع عيب بخلاف النزع) وانت صاحب براذين [1] وانا صاحب حمير) الخ ..

هنا يقف القارئ هنيهة ليفكّر : أحقًا ما ذكر من ان الخصال المتناقضة هي

(١) اي انت من الأعيان الذين يركبون البراذين وانا من الأوشاب الذين يركبون الحمير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من اوصافه واوصاف صديقه ؟ وهب كان ما ذكره حقاً فهل من الحق ان يكون الجاحظ اقام بفرغانة من بلاد ما وراء النهر ، وان يكون ابن الزيات أقام في الأندلس ؟ ومتى كان ذلك ؟ وهل نقله احد من رواة اخبار الجاحظ وابن الزيات ؟ وهل يؤدي ركوب الهزل ، والهيام في مضايق شعابه ، والدخول اليه من أضيق أبوابه ، الى كل هذا التزيد في القول ، والى حد ان يجعل نفسه أمياً ، ومن اهل فرغانة ؟ أم ان شيخنا الجاحظ يخترع لرسائله ابطالاً وهميين أحياناً ، غير بطل الرسالة الأصلي الذي هو (الوزير الزيات) كما جاء في فاتحة الرسالة ؟ ولو صح لنا ذلك وقلنا : إن الخطاب المذكور لواحدٍ من عُرْض الناس لفوجئنا بالجاحظ يصل كلامه بما لا يصلح أن يخاطب به الا وزير : (انت تدبّر بنفسك ، وتقيم أود غيرك ، وتتسع لجميع الرعية ، وتبلغ بتدبيرك أقصى الامة وانا اعجز عن تدبير نفسي ، وعن تدبير أَمَتي وعبدي ، وانت ملك وانا سوقة) الى ان قال : (سبحان الله يسلَمُ عليك حيدر الأفشين ، ويهلك عليك عمرو الجاحظ ، ويسوء بك أبعد البعداء ، ويشقى بك أقرب القرباء ... فكُلني بخلٍ وخردل ، فو الله إنك لتأكله غثاً غير مَرِيٍ وخبيثاً غير شهي .

ووصف الصديق فقال (فاذا بان منك صديقك ، فقد بان منك شطرك ، واذا اعتلّ خليلك ، فقد اعتلّ نصفك ... فموتي هو موت صديقي . وحياتي هي حياة صديقي) . ثم وصف الصديق الوفيّ فقال : (ولا اعلم الكبريت الأحمر إلا أوْجَدَ منه . وإني لأظن القناعة أكثر منه .. وقيل ليحيى البرمكي : أي شيء أقلّ ؟ قال قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديقٌ قليل الآفات ، كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع المرح) قوله (قليل الآفات) اي العاهات . ولعل صوابه (قليل الآهات) أي قليل التأوه والشكوى والتوجّع من سوء الحال ، وإدبار الزمان ، بدليل قوله بعد (شكور النفس) .

وعَتَبَ على صديقه في أنه يضجر من إلحاح صديقه عليه بطلب العفو ، مع انه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو لا يضجر بتشاغله بظلم ذلك الصديق ، حتى كأنه يلذّ له (ضرب السياط ، ورضّ العِظام) غير أن شَيْبة الجاحظ ، وكبرة سنه ، ورقة عظمه ، ووهن بدنه ، لا يحتمل كل هذا العذاب وانما (دندَن أحمل ، والسوط في ظهر قاسم أحسن . وأبدانهما تحت السياط أثبت . وان ارواحهما أبقى . وهي بأرواح الكلاب أشبه والى طبائع الضباب أقرب . وأرحامهما بالحمير أمسّ ، ومن يشير عليك (بانزال ذلك العذاب) فيهما اكثر ، والأجر في ضربهما أعظم ، فاستدم اللّذة بطريق اللذة . وضع الأمور في مواضعها يَطُلْ سرورك بها) . وبعد ان استطرد الى التفريق بين انواع الحيوانات في تحمّل الألم ، ولذع السياط ، عاد الى الوشاية بـ (دندن) و (قاسم) وتحريض الوزير على البطش بهما (لاختلاسهما أموال الأمة) فقال (وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذتك ، وتمام شهوتك ، فان زعمت ان الذي يثبّت روح دندن في بدنه ، وروح القاسم في جسمه ، سرورُهما بما احتجَا من كنوز الخلافة ، واموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ ارواحهما في ابدانهما ، ومن شدة الاحتجان ، وقوة الاكتناز — ففرّق بينهما وبين تلك الأموال ، التي تمسك أرواحهما ، بالحيل اللطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضي فيهما حكمَ الكتاب والسنة . فانه سيحل عُقدة أرواحهما عقداً عقدا . فيعظم أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتُطيع الخليفة ، فتكون قد احسنتَ في صرف الضرب إلى اهله . وارحتَ منه غير أهله والسلام) . وهكذا ختم الجاحظ رسالته في الجد والهزل) فتندّر بهذين المسكينين (دندن) و (القاسم) ، وطلب الايقاع بهما ، وشفاء الصدور منهما .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net